المحاضرة الثّالثة:
النّقـد الأسلـوبي

تمهيـد:

ظهرت الأسلوبية كمنهج نقدي بعد سلسلة من المناهج النّقدية، وتُعنى بدراسة النّص الأدبي وفكّ مغاليقه، وانطلاقًا من أهمّية الدّراسة الأسلوبية وحضورها المكثّف في الدّرس النّقدي ارتأينا أن تكون محاضرتنا حول ملامح الأسلوبية في الدّراسات العربية المعاصرة، تنظيرا وممارسة.

اهتمّ النّقاد الغربيون بموضوع الأسلوبية واتّجهت جلّ جهودهم إلى محاولة وضع أطر لهذا العلم الحديث، ومن أهمّ الرّواد الأوائل الذين قدّموا مساهمات وفيرة فيه: شارل بالي*charles Bally* 1865م-1947م، حيث يعتبر هذا اللّساني السّويسري من المؤسّسين الأوائل لعلم الأسلوب سنة 1909م تاريخ صدور كتابه الأول في الأسلوبية الفرنسية، ويُعتقد أنّ الأسلوبية هي البحث الذييُعنى بدراسة قضايا التّعبير عن قضايا الإحساس والكلام، وهي بذلك تدرس تعبير الوقائع للحساسية المعبّر عنها لغويا، كما تدرس فعل الوقائع اللّغوية على الحساسية، ثمّ توالت جهود أتباعه مارسيل كرسيو *Marcell Kriso*، وجول ماروز.*Joll Maroz*...

لقد نالت الأسلوبية الحضوة بفضل هؤلاء وأسهمت في غزارة المطارحات الأسلوبية على تعدّد وتشتّت الآراء في تحديدها.

1-الأسلوبية والتّصور النّقدي العربي:

تطلّع النّقاد العرب إلى الأسلوبية بحكم الانفتاح الكبير على الغرب عبر منافذ عديدة، وسيطرة الفكر العقلي الموضوعي على البحث الإنساني، وقد سجّلنا وجود شذرات نقدية تومئ لظاهرة الأسلوب منذ العصور الأولى سيما على مستوى الشّعر، وأهمّ ما وصلنا منها آراء الجاحظ في كتابه الحيوان، وكذلك البيان والتّبيين، كما عقدت العديد من الموازنات النّقدية الأسلوبية كموازنة الآمدي ت370 هـ، بين شعر أبي تمام والبحتري، وما أفرزته نظرية النّظم عند عبد القاهر الجرجاني من آثار لدى علماء الغرب الذين تفطّنوا من خلال جهود النّقاد العرب الأوائل لأهمّية الجانب الشّكلي في الخطاب الأدبي وآلية بروز السّمة الأدبية الشّكلية وفق محوري الاختيار والتّركيب ،وهو ما حدا بهم لدراسة هذه العملية واختصارها في مصطلحات دقيقة، أعاد العرب فيما بعد نقلها بعد ترجمتها لتكتسح السّاحة النّقدية، وكانت البواكير الحقيقية للممارسة النّقدية الأسلوبية بمفهومها الحديث نهاية السّبعينيّات من القرن الماضي.

لقد مرّت هذه الممارسة بمرحلتين، وهما:

أولا-**المرحلة التّعريفية أو التّأسيسية**: في نهاية السّبعينيّات، وأوائل الثّمانينيّات من القرن الماضي عندما خاضت البحوث الأسلوبية العربية في تعريف الأسلوبية ومعطياتها وحقولها النّسقية ومساراتها عند العرب وميّزها اتّجاهان[1]:

1-مسار **تعريفي حديث**: وروّاده الدّكاترة: عبد السّلام المسدّي، شكري عياد، صلاح فضل.

2-**مسار توفيقي**: رسم حدود التّواصل بين البلاغة العربية القديمة ومسارات المنهج الأسلوبي الحديث ومن روّاده الدّكاترة: محمّد عبد المطلّب، محمّد الهادي الطّرابلسي، وغيرهم.

ثانيا-**المرحلة الإجرائية**: صنّفت فيها الكشوف التّطبيقية وروّادها من المنظّرين الأوائل لعلم الأسلوب، وأبرزهم: د/عبد السّلام المسدّي في كتبه التّطبيقية، ود/صلاح فضل، ود/ كمال أبو ذيب في كتابه (الشّعرية).

ويبدو أنّ تيار الأسلوبية بدأ في المغرب والجزائر وتونس وفي سورية (كمال أبو ديب)، ثمّ انتقل إلى المشرق العربي، وقد مثّل كلّ دولة مجموعةٌ من الباحثين العرب، ففي السّعودية (عبد الله الغذّامي) الذي تتلمذ على يد الدّكتور (سعد مصلوح)، وفي تونس د/ عبد السّلام المسدّي، وفي مصر طائفة من الباحثين (صلاح فضل، محمّد عبد المطّلب، شكري عياد، عبد المحسن طه بدر، أحمد درويش، محمّد السعران، وفي الأردن (خليل أبو عمايرة)، وفي المغرب (محمّد الهادي الطّرابلسي)، أمّا في الجزائر فالدّكاترة (عبد الملك مرتاض/ نور الدّين السّد..).

لقد تنوّعت بحوث هؤلاء النّقاد والباحثون العرب بين النّظرية الصّرفة التي ترصد وتفحص تصوّرات هذا العلم على السّاحة النّقدية، وأخرى تطبيقية لإبراز إمكانات التّحليل الأسلوبي في العملية النّقدية

وثالثة حاولت التّوفيق والجمع بين الجانبين، أضف إلى ذلك بعض الآراء الاجتهادية والتّطبيقات الفردية، وأهمّها:

1–**عبد السّلام المسدّي**: اتّسمت بحوثه الأسلوبية ومصنّفاته بالبحث عن نقاط التّكامل والتّعالق بين المنحى الجمالي والمنحى الموضوعي العلمي، إلاّ أنّ تحاليله نزعت إلى روح التّجريدية العلمية أكثر من الرّصد والكشف الجمالي، ويُعدّ المسدّي من الباحثين الأوائل الذين روّجوا لمصطلح الأسلوبية، كما لم يُغفل اعتماد مصطلح علم الأسلوب، ولم يمل إلى منهج معيّن لذاته في تحليله الأسلوبي، بل مزج بين المقولات الأسلوبية ومعطيات علم النّفس، ودعا إلى ضرورة إغناء العمل الأسلوبي بالفحص النّقدي النّظري، والمراجعة التّطبيقية للوصول إلى تلخيص المعارف، وتمحيص المفاهيم، كما ألحّ على ضرورة الحذر والحيطة المسبقين في اختيار الخطوة الأولى للولوج إلى العمل النّقدي ذي الطّابع الأسلوبي.

2–صلاح فضل: رائد من رواد البحث الأسلوبي في المشرق العربي، عكست إنتاجاته اهتمامه الخاصّ بالبحث في مجال هذا العلم وسعيه الدّؤوب لوضع أسس علمية وجمالية لأسلوبية عربية قادرة على إثبات وجودها أمام المدّ المتصاعد للتّيارات النّقدية الوافدة من الغرب، والتي لايتلاءم بعضها مع طبيعة النّص الأدبي، ومن أهمّ آرائه في هذا المجال تفضيله لاستخدام مصطلح (علم الأسلوب) بدل الأسلوبية لأنّ علم الأسلوب جزءٌ لايتجزّأ من علم اللّغة العام.

كما أطلق كذلك على اجتماع الأسلوب والشّعرية معا مصطلح (علم الأسلوب الشّعري) في بحث واحد، وهو لايغفل المواشجة بين المراحل النّصية والسّياقية. كذا الظّواهر الجمالية أثناء التّحاليل الأسلوبية للنّصوص الشّعرية وأساليبها بشرط احترام خصوصيات النّص الأدبي العربي.

3-سعد مصلوح: اعتمد مصطلح الأسلوبيات الموافقة على ما جاء في لسان السّلف على وزن (الطّبقات/ الرّياضيات)، كما يرى هذا المصطلح يتّفق حديثا مع مصطلح (اللّسانيات)؛ إذ يُعتدّ بهذا العلم (علم الأسلوب) ولايعدّه منهجًا لأنّه يضمّ عدّة مناهج بداخله.

4-شكري محمّد عياد: اجتهد في تقسيم وتفريغ الأسلوبية إلى وجهين رئيسيين:

-**علم الأسلوب العام**: وهو علم يهتمّ بالخصائص الأسلوبية التّعبيرية في اللّغات عموما، كالمجاز وغيرها.

-**علم الأسلوب الخاصّ**: يعُنى بميزات أسلوبية تعبيرية خاصّة بلغة ما معيّنة، وهو في موقف آخر يدعو إلى الاعتداد بالبلاغة العربية وما قدّمته للبحث الأسلوبي الحديث في دراسة القيم التّعبيرية والاستفادة من الدّراسات اللّغوية الحديثة في إرساء علم الأسلوب العربي.

د/نور الدّين السّد: أبدا اهتمامًالافتًا للأسلوبية ومنهج تحليل الخطاب من خلال كتابه (الأسلوبية وتحليل الخطاب) سنة 1997م، والذي كان بمثابة دراسة بيبليوغرافية لمختلف الدّراسات السّابقة وخاصة العربية منها، إلى جانب بعض الاختلافات الجوهرية لها، وحاول عرض هذه التّجارب عرض ملخّص أورد فيه أهمّ إيحاءات هذا التّحليل وما أضافته للبحث الأسلوبي مع الفروقات

الجوهرية بينها، ومن آرائه في هذا المجال وصفه الأسلوبَ أنّه مرتبط بعلم اللّغة عن طريق المادّة اللّغوية التي يصدر منها.

ومن خلال ذلك كلّه نقف على شهادة الدّكتور " طه وادي" في كتابه" الأسلوبية"؛ إذ يصرّح:

" اليوم ... لم يعد ثمّة ريب بين الدّارسين العرب للنّص الأدبي ... أنّ منهج الأسلوبي قد أصبح أكثر المناهج المعاصرة قدرة على تحليل الخطاب الأدبي بطريقة علمية موضوعية تعيد مجال الدّراسة –دراسة النّص–إلى مكانها الصّحيح. وهو دراسة الأدب من جانب اللّغة ".

وصفوة القول:

تُعدّ اللّغة من أبرز مكوّنات الخطاب الأدبي، كما أنّها المادّة الشّكلية التّعبيرية التي تنبني عليها الرّسالة الإبداعية التي يرسلها الكاتب إلى القارئ عبر جمل متنوّعة، سردية ووصفية ومشهدية وبلاغية وحرفية.

لذلك يتمّ التركيز عليها كثيرًا مادامت شفرة وسيطة بين المبدع والمتلقّي، لأنّها تحمل نوايا المؤّلف وأطروحاته المباشرة وغير المباشرة، وذلك من خلال استعمال تعابير مسكوكة أو مستنسخات تناصية أو تعابير تقريرية أو أساليب إيحائية انزياحية ورمزية. ومن ثمّ، فأيّ مبدع لايملك ناصية اللّغة وقواميسها الحرفية والمجازية، ولايحسن توظيفها أدبيا ساميا، ولايستثمرها في سياقات تواصلية وتداولية ذات مقاصد تداولية فنّية وتعبيرية في قمّة البلاغة والجمال والرّوعة الفنّية، فإنّه لن يستطيع أن يكون كاتبا روائيا ناجحا ومتميّزا.

وحاولت المقاربات المرجعية، سواءٌ الاجتماعية منها أو النّفسية ربط اللّغة بمفاهيم التّحليل النّفسي والوعي واللاّوعي، وعلاقتها بذات المبدع، أو ربط اللّغة بما هو اجتماعي وطبقي، ومدى تعبيرها عن الصّراع الاجتماعي بين الفئاتالاجتماعية، وجنوحها نحو الواقعية والتّصوير الموضوعي المحايد، بعيدًا عن الإنشائية ولغة الاستعارات.